الشاعر الأسير

قال أبو فراس من رومياته*:

يا حَسْرةً مما أكادُ أحملُها،
آخرُها مُزْعِجٌ، وأولُها
عَليلةٌ، بالشآم مُفْرَدَةٌ
باتَ، بأيدي العِدا، مُعَلَّلُها
تَسأل عنّا الرُكبانَ جاهدةً
بأدْمُعٍ ما تَكادُ تُمْهِلُها:
يا مَنْ رأى لي بحِصْنِ خَرْشَنَة
أسْدَ شَرىً، في القُيود أرْجُلُها!«١»
يا مَنْ رأى لي الدُروبَ شامخَةً
دونَ لِقاء الحَبيبِ أطْولُها!
يا منْ رأى لي القُيودَ موثَقَةً،
على حَبيبِ الفُؤادِ أثْقلُها!
يا أيّها الراكبان! هل لَكُما
في حَمْلِ نَجوى، يخِفْ مَحْمَلُها؟
قولا لَها إنْ وعتْ مقالَكُما
- وإنْ ذِكْري لها لَيُذْهِلُها -:
يا أمّتا! هذه مَنازِلُنا؛
نَتْرُكُها تارةً، ونَنْزِلُها!
يا أمّتا! هذه مَواردُنا؛
نَعُلُّها تارةً، ونَنْهَلُها!«٢»
أسْلَمنا قومُنا إلى نُوَبٍ
أيْسرُها في القُلوب أقْتَلُها!
يا سَيِّداً ما تُعَدْ مَكْرُمَةٌ
إلا وفي راحَتَيْه أكْمَلُها
ليستْ تَنالُ القُيودُ من قَدمي
وفي اتّباعي رِضاك أحمِلُها
بأيِّ عُذرٍ رددتَ والِهَةً،
عليكَ - دونَ الورى - مُعَوَّلُها؟
جاءَتْكَ تَمتاحُ ردَّ واحدها،
يئتظرُ الناسُ كيفَ تُقْفِلُها«٣»
سَمحتُ منّي بِمُهْجَةٍ كَرُمَتْ
أنتَ - على يأسِها - مؤَمِّلُها«٤»
إنْ كنتَ لم تَبْذل الفِداءَ لها
فلم أزلْ، في رِضاكَ، أبذِلُها
تلك المودات، كيفَ تهمِلُها؟
تلكَ المَواعيدُ، كيف تُغْفِلُها؟
ياواسع الدّار! كيفَ توسعُها؟
ونحن في صَخْرةٍ نُزَلْزِلُها؟
يا ناعمَ الثوب! كيف تُبْدِ له؟
ثيابُنا الصّوفُ ما نُبدلُها!
يا راكبَ الخيل! لو بَصُرْتَ بنا،
نَحْملُ أقْيادَنا، ونَثْقُلُها!
رأيتَ في الضُرِّ أوْجُها كَرُمَتْ
فارقَ - فيكَ - الجَمالَ أجْمَلُها«٥»
قد أثَّرَ الدَّهرُ في مَحاسنِها؛
تَعْرِفُها، تارةً، وتَجْهَلُها
لا يفتحُ النّاس بُابَ مكْرُمَةٍ
صاحِبُها المُسْتغاثُ يُقْفِلُها

الهوامش:

* ديوانه ٣/ ٣٣٠

«١» خرشنة: من بلاد الروم قرب مَلطَية، لا تبعد كثيراً عن خط الثغور. فتحها سيف الدولة في معاركة الظافرة سنة ٣٣٩هـ، ودخلها أيضاً في معاركة سنة ٣٤٥ هـ والشريُ: ماسدة.

«٢» علّ: شرب ثانية «العلل». ونهل: شرب أول الشُرب «النّهل».

«٣» امتاح: استخرج الماء ليستقي: وقفل: عاد؛ وأقفل: أعاد.

«٤» المهجة: دم القلب، والروح. يريد: إنه سمح بها وبذلها، علي غلائها.

«٥» الضُرّ: الشدة والضيق.